مقياس الأدب والفنون السمعية البصرية: ماستر2 أدب عربي حديث ومعاصر

د/ سعاد حميدة

الأفواج:1+2+3+4

المحاضرة4: صلة الأدب بالفنون البصرية(الرواية والرسم)

تمهيد:

تتعدد مرجعيات السرد الروائي العربي الحديث والمعاصر، حيث يتداخل مع الكثير من الفنون، وقد عرفنا سابقا تلك الصلة الوثيقة بين الرواية والسينما، وسنتعرف اليوم على صلتها بفن آخر هي الفنون التشكيلية وعلى رأسها الرسم« بسبب قوة الصلة بين الرواية والفنون المكانية، لأنها تجعل_ هي الأخرى_ الصورة مرئية، مما يجعلها مرتكزا للرؤية البصرية المتخيلة.

يؤكد هنري جيمس أن« المبرر الوحيد لوجود الرواية هو انها تحاول بالفعل تصوير الحياة_ لا فرق بينها وبين لوحة المصور أو الرسام»، لذا فهو يرى تأكيد التشابه بين الرواية والصورة وبين فن الروائي وفن المصور.، كما يعتبر هنري جيمس مرة أخرى أن « الرواية عمل فني يضارع فن الرسم، ويعمد إلى التقريب بين النص المتخيل واللوحة المرسومة، لذلك يصدر كتابا بعنوان: عن الرواية باعتبارها فنا من الفنون الجميلة».

كما يرى كونراد أيضا أن الرواية « كي تحقق ما تصبو إليه من تأثير ونجاح، عليها أن تتعلم من فنون النحت والتصوير والموسيقى، كيف تصل إلى الوجدان عن طريق الحواس، باستخدام التشكيل واللون وغيرهما». فما طبيعة الصلة بين الرواية والرسم؟

تعد تجربة جبرا دالة في هذا المجال، إذ مارس الرسم مبكرا، وبعد التحاقه بجامعة كامبريدج استمر في الرسم رغم ظروفه الصعبة، إذ « رسم في هذه الفترة مجموعة من اللوحات التي تعالج الأشخاص والمناظر التي لا تخلو من العفوية والحرية، معتمدا على اللون وتدرجاته في البناء الفعلي للوحة، هذا بالإضافة إلى وجوده في بريطانيا جعله على اطلاع واسع على الفن وعلى الأساليب الفنية، لهذا تعتبر هذه الفترة من أهم الفترات التي ساهمت في تكوين شخصية جبرا التشكيلية وفي تطوير الموهبة ورفدها بالمعلومات».

ولقد انعكست هذه الخلفية الابداعية في كتابات جبرا بعدما توقف عن الرسم واتجه للكتابة، فشيد معمارا روائيا قائما على الانفتاح النصي(توظيف خطابات ولغات وأساليب وأصوات مختلفة، وطرائق سردية حديثة) لتكسير المواضعات الأجناسية ونبذ عزلة الخطاب، وعلى استثمار معرفته النقدية والفنية لتخصيب المتخيل، فأتت رواياته حافة بالحديث عن الرسم واللوحات والمصنفات الفنية، فيقول في روايته (الغرف

الأخرى)« **فعلى امتداد الجدران الأربعة الشديدة البياض مصاطب منتظمة لجلوس المراجعين، علقت على الجدران صور بالألوان لأمهات ورديّات الخدود يرضعن أطفالهن، ولقطط سيامية سمينة ازدانت أعناقها بالأشرطة البنفسجية، مما أكد لي انطباعي بأنها غرفة لانتظار المرضى**»، كما نستدل بمقطع من رواية(شارع الأميرات) فيقول« **كانت إحدى لوحاتي الست فيها تمثل قرويات فلسطينيات رسمتهن ايام 1948 الشاقة في بيت لحم، وقد جلسن أرضا بأثوابهن الزرقاء والخضراء والحمراء حول سلة من الفاكهة، وهنّ أشبه بثلاث ربات للكبرياء والبقاء، ثم أعدت العمل على اللوحة بالمزيد من كثافة الأصباغ بالفرشة والسكين في أوائل 1951**»ن وهكذا يتقاطع السرد الروائي مع محكيات الحديث عن الفن واللوحة في كتابات جبران كتأثير مباشر لهذه المرجعية الفنية، بل إنه يستخدم في نصوصه مجمل تقنيات الرسم كإلصاق المتخيل والواقعي.

ويشكل نسق الرسم مرتكزا سرديا عند الروائي المغربي **محمد برادة** في روايته(الضوء الهارب)، حيث الشخصية المحورية رسام مثقف، عندما تستبد به الأفكار والأحلام يحولها إلى أشكال تحرك القلم والفرشاة فهو منغمر في الرسم« **يمضي ساعات طويلة في الرسم والقراءة**» وقوله« **أقدم على تنظيم معارض للوحات حاملا غثاء الهوية المشروخة والاكتمال المحطوم والحب المتواري**» وقوله في نفس الرواية يظن « **أن الرسم يسعف أكثر من الكلمات**».

كما تتميز تجربة الروائي **إبراهيم نصر الله** بتخصيب دينامية المتخيل والانفتاح على معارف موازية خاصة مجال الرسم الذي يشكل عنصرا من العناصر المكونة لسيرته الإبداعية، فهي مليئة بالمشاهد التي تتجسد بصريا، ومليئة أيضا بالفراغات والتوقفات(البياض)، والأشكال والألوان، وبذلك تغذّت بفاعليات الرسم وأدواته.

أما روايات **(سليم بركات)** فتستقي عناصرها التشكيلية من الرسم التجريدي(بيكاسو_ سيزان ،،،الخ) إذ تقوم بتحوير الأشكال والملامح، فالشخصيات تفتقد ملامحها الواقعية، ويتم تشخيصها في شكل محرف أو مهشم غير واقعي، والاشياء تتخلى على أشكالها العادية، كذلك الأماكن والأحداث(كائنات هلامية غريبة محرفة الشكل فضاء لا واقعي)، مما يجعلها في النهاية تلتقي مع اللوحات التجريدية والتكعيبية.

كما استثمر(واسيني الأعرج) لغة الألوان والريشة والقماش والخشب والزجاج، وذلك في رواية "سوناتا لأشباح القدس" ورواية "مملكة الفراشة"، نظرا القيمة التواصلية التي يحملها هذا الفن، ففي "سوناتا لأشباح القدس" نجد (مي) قد عثرت أخيرا على لونها الذي طال التنقيب عنه وهو لون "فرشات القدس"،

كما أشرق في لوحاتها مستثيرا نشوتها، إنه اكتشاف عظيم أحرز خطوة جبارة في تاريخ رحلتها الفنية ومسيرتها مع الرسم والألوان، تقول (مي): « **لن أغير الحياة ولكني أستطيع أن أمنح بعض السعادة للعيون التي ترتاح لألواني**.» تتدفق على هذه الشاكلة براثن الأحلام والغبطة والسعادة، كما تتداعى داخل امرأة أرهقها ثقل الذاكرة وشطط الدنيا « **اللون عجنة من الذاكرة وقسوة الحياة ولذتها**.»، كانت ألوان (مي) مصدرها الماضي بكل تفاصيله وحيثياته، والحاضر بين دهاليز المشفى ومخالب المرض وانتظار الموت.

وكانت طريقة اعتماد التعالق بين تاريخ اللوحة ورقمها وشرحها في المتن، مع رابط عضوي مقنع بينها هي التي هيمنت على متن العديد من صفحات الرواية، وتجر هذه اللوحة أو تلك ملخصا لكلام طويل في أعلى الصفحة، مشيرا إلى أن جل هذه اللوحات، محفوظة في متحف (نيويورك) وكان من المفروض أن تكون على أرضها الأصلية، القدس الجريحة وبين أعلى الصفحة وهامشها في الأسفل ينكسر السرد بطريقة فيها نصية عالية وجمالية واضحة.

مزج الكاتب بين الموسيقى والرسم، ليشكل لونا جديدا وفريدا ومميزا، مما جعل الرواية تحفة فنية، فقد جعل الروائي نجم التعالق بين الرسم والموسيقى يسطع من بعيد، حيث اكتسب الرسم الصدارة في إخراج الأم من قوقعتها المشؤومة، ومد منبع إلهام يوبا تحول على إثرها معرفة لوحات أمه، التي يحتفظ بها في بيته إلى بيانو كبير يعزف موسيقى الوجود « **لم يكن فرانسيسكو غبيا عندما حدد موقع اللوحات بحسب حركة الضوء وامتداداته داخل البيت، وايقاع النور المتسرب من الشرفة نحو العمق، لقد منح حياة جديدة للحيطان الباردة**.»، لقد استمد (يوبا) ثقته بنفسه وحب الموسيقى، من تأمله للوحات أمه، وبها يطل على نافذة وجدانه وحياته الماضية، وما تخللها من مغامرات وحكايات لأشخاص باتوا مجرد أشباح مغيبين فقد كان « **يغمض عينيه وفمه وقلبه وذاكرته المنهكة، لكي لا يرى ولا يسمع إلا هدير الألوان الذي كان يندفع من الأعماق في شكل إيقاعات لا حدود لها**.».

هكذا تتحول ألوان اللوحات إلى موسيقى عذبة، أين كان يسترق السمع إليها بين الفينة والأخرى، وهنا يتجلى تأثر الرسم بالموسيقى في الأوزان والإيقاعات والأصوات، وكل هذا يتأتى انعكاسا للشخصية الفنية لـ(يوبا) التي باتت ترى ما حولها أنغاما وألحانا، وهو ما زاد من شرح الموضوع الذي تعبر عنه اللوحات بعد أن شخصها في آلات تعزف دموع الفراق وشجن البعد.

كما حفلت أغلب روايات المبدع الجزائري عز الدين جلاوجي باستحضار وتوظيف الرسم، وعادة ما توصف الرواية بأنها لوحة مرسومة بعناية من قبل كاتب ينتحل دور الرسام في التقاط التفاصيل، فتقوم هذه التفاصيل بنقل المشاهد التي يريد تصويرها وإيصالها إلى المتلقي في شكل صور ولوحات فنية متخيلة.

ولقد كان جلاوجي **رساما بالكلمات**، فوظف لغته السردية لغايات فنية، فأخذ تشكيل الصور عنده أبعادا مختلفة تجعلنا نضيع في دوامة التخييل برسم المشهد بكل تفاصيله، فعبر كل صفحات الرواية تقريبا نجد أنفسنا أمام توالي الصور الفنية والمشاهد التخييلية، فقد تفنن الروائي في تشكيل العديد من الصور الفنية الحسية، عن طريق تمثل الروائي للغة خاصة تعتمد على التكثيف الدلالي للكلمات، لترتسم في الأخير في ذهن القارئ على شكل صور يراها عبر خياله.

لقد مارس جلاوجي ما يعرف بالرسم بالكلمات وذلك عبر متخيله الواسع في تشكيل العديد من اللوحات الفنية عبر اللغة السردية، في مثل وصفه لسمرائه في روايته**(حائط المبكى)** قائلا:« **سمرتها النظرة، عيناها السوداوان الواسعتان، وقد تغشاهما ذبول، حاجباها المعقوفان كخطاف أعياه التجديف في الفضاء البعيد، أهدابها الاشبه بجناحي فراشة، سوداء ناذرة، شعرها الحالك الذي عصمته بخيط أبيض طويل، ابتسامتها البريئة التي ظلت توزعها على كل من يحبها، أو حتى يمر قريبا منها، شفتاها اللتان كانت تداعب بهما فنجان القهوة الساخن، ملابسها الخريفية الأنيقة، كل ذلك ظل يحاصرني**...».

كما يقوم الروائي بالحديث عن الألوان بطريقة غير معتادة، حيث يسلك طريقة الرسامين في ذلك قائلا " **لم أتحمس لفتحها، رميتها جانبا، أحسستها تمور غيضا، وقد تحديت إغراءها وهممت أن أعود لإتمام لوحتي، استوت الفرشاة في يدي، وعانقت عيناي تفاصيل اللون الأخضر العميق، الذي عانق في بعض أجزائه سوادا داكنا وحمرة قانية، لم تغادر الرسالة خيالي**»، يعمل الكاتب على مجاورة الألوان جنبا إلى جنب أخضر ثم أسود ثم أحمر قاني، فهذه التقنية قد استعارها من تقنيات الرسامين في رسم مشهد بالكلمات.

وعن اللوحات الفنية لقد تنوعت مرجعيات السرد عند الروائي الجزائري عز الدين جلاوجي في روايته "حائط المبكى"، ففضلا عن توظيفه لبعض الفنون الأدبية، لجأ إلى استعمال بعض الفنون التشكيلية لقد جعل عز الدين جلاوجي من بطل الرواية رساما هاويا للرسم متشبعا بثقافات الرسامين مطلعا على كل روائع الفن العالمي يقول البطل « **انصب اهتمامي مذ وعيت على التشكيل، مارست الرسم والنحت ووقفت طويلا ممتلئا إعجابا أمام روائع الفن العالمي، استمعت إلى الموسيقى تنساب شلالا للعبقرية في كل الكون**».

تأسيسا على هذا نجد أن الروائي يحاول إبراز سعة اطلاعه بعالم الفن بأنواعه من خلال ذكره لعديد

الرسامين والخطاطين والأدباء والموسيقيين والمغنين أمثال سلفادو دالي Dali Salvador، بابلو بيكاسو Picasso.P، عمر راسم، تريستان تزارا Tazara Tristan ، مارسيل جانكو Janko Marcel ، أندري ماسون Masson Andre، اوليفر دينيت غروفر Grover Dennett Oliver ، بول كوكان Paul Coguin، ماري كاسيت Casset Mary، عبد الله الأطرش، ابن مقلة، عبده داغر ...

لقد اعتمد عز الدين جلاوجي في روايته على البعد البصري كملمح تجريبي في الكتابة الروائية، من خلال توظيفه لبعض اللوحات الفنية، إذ تبنى عوالم الرواية على شخصيتين يجمعهما مكان للفن، وهما مدرسة الفنون الجميلة التي شكلت بؤرة انطلاق الأحداث وتناميها، ليتشكل كل حدث بأنامل الروائي لوحات فنية خالدة، رسمت وعلقت بحائط مرسمه، كما استعان بلصق بعض اللوحات الفنية العالمية على صفحات الرواية ، التي تنم عن غاية تدفع المتلقي صوب اكتشاف الوشائج الرابطة بين اللوحة والأحداث المسرودة كجانب ترميزي ملغز وصامت، يحيل إلى أشياء صارخة تفتح شهية المتلقي على القراءة والتأويل.

وقد اختار الروائي من تلك اللوحات ما يتناسب وتجربته المرتبطة بالتيمات، التي اشتغلت عليها روايته خاصة ما تعلق بالجانب النفسي، الذي تلعب فيه الأهواء دورا كبيرا، حيث تميزت عديد الفصول بالرغبة والغبطة والحزن والقلق والخوف.

وبالتالي لم يتوقف عز الدين جلاوجي عند ذكر أعلام الفن التشكيلي بل تعمد إلى استحضار بعض اللوحات الفنية المشهورة، لفنانين عالميين، مقدما من خلالها قراءته الخاصة فاتحا المجال في الوقت نفسه المجال للقارئ بأن يقرأ اللوحة وفق رؤيته الخاصة، ونجد أول لوحة يستحضرها الكاتب هي لوحة عمر راسم هذا الأخير الذي يعد من أوائل الرسامين الجزائريين الذين ساهموا في تقديم أعمال فنية رائعة وفريدة.

وواجب الإشارة إلى عنصر يجمع بين عديد المدونات الروائية ويؤشر على جماليات الرسم فيها، ويتعلق الامر بالاستعانة بخبرة الرسامين لإنجاز الأغلفة وفق تصورات جمالية معينة تروم إغناء النصوص بالرمزية البصرية، حيث مطلوب من القارئ قراءة النص المكتوب وفي نفس الوقت مطالب باستقراء اللوحة او الصورة الفوتوغرافية ليكتمل المعنى.